الحيـــــاة الأدبية
فى طرابلس الغرب
بين الماضى والحاضر

للأستاذ صلاح الدين بن موسى

لعل الحديث عن الأدب وأهله فى هذا القطر العربى الباسل أمر فيه شىء كثير من الغرابة عند أبناء العروبة الذين ارتسمت فى مخيلتهم وأفكارهم صور مبهمة غامضة عن طرابلس الغرب — أو (لوبيا) كما يحاول أن يسميها بعض المتأخرين — فهم لايعرفون عن هذه البلاد إلا قوماً خربت ديارهم وخربت مدنهم، وأصابهم من ويلات الحرب ما تركهم فى غفلة أو حيرة، هم بسببها بعيدون كل ماله صلة بالحياة الروحية شعرية كانت أم نثرية، وإن أسباب المعيشة وذلك الفقر المدقع فى الغذاء والكساء كانا حائلا دون انصراف القوم لتثقيف عقولهم وتحقيق النهضة الأدبية بينهم، تلك هى الصورة الخاطئة التى ترتسم هذه الأيام فى أذهان بنى يعرب ويصرحون بها فى مجتمعاتهم الأدبية وأنديتهم الثقافية. لهذا وقد وقفت على الحقيقة الناصعة ولمست روح النهضة الأدبية فى بلاد (ليبيا) أحببت أن أجعل من حديثى هذا على صفحات «الرسالة» ممرضاً للفكر الحديث والنهج الأدبى فى طرابلس عساى بذلك أكون قد حققت قسطاً من واجبى نحو قطعة غالية من بلاد العروبة ...

قبل الحديث عن نهضة طرابلس الغرب الحديثة سأحاول أن أعطى للقارئ صورة صادقة لتدرج الحياة الأدبية منذ العهد العثمانى حتى وقتنا هذا فيرى تطور الروح الأدبى ونمو الذوق الشعرى خلال هذه الحقب المتعالية ومبلغ التقدم الذى حازته هذه البلاد فى زهاء ربع قرن تقريباً ..

كانت النهضة الأدبية زاهرة يانعة، قبل احتلال الطليان طرابلس الغرب وكان فيها كثير من الأدباء المجيدين والشعراء اللهمين نذكر منهم: الشيخ على سيالة صاحب المعلقات الشهيرة، والشيخ محمود نديم بن موسى، والشيخ ابراهيم باكير، والأستاذ العلامة سعيد المسعودى وآخرين ممن ساعدوا على نشر اللغة العربية وبعث مبادئ الحرية والحياة الصحيحة المستقلة.

وكانت جريدة (الرقيب العتيد) خير رسول أمين للنهضة الأدبية تنقل منتجات عقول الأدباء ووحى شعورهم أو تفكيرهم. وكان لصاحبها الشيخ محمود نديم بن موسى اليد الطولى فى تشجيع الأدباء ورفعهم إلى المستوى الثقافى الرفيع، فأنشأ بمساعدة بعض الأدباء ناديا للثقافة والأدب كان يلقى فيه المحاضرات المختلفة فى السياسة والأدب والاجتماع ويعقد الاجتماعات الأدبية والمساجلات الشعرية والملاحم التمثيلية.

وكان الاستعمار الإيطالى، فطغى على تلك الأفكار الوثابة وغمرها بسيل من التبلبل والارتباك وسد عليها المنافذ فلم تجد ما تتسرب منه وتسمع صوتها، وأمسى هذا الوضع السياسى يسيطر على العقول ويصرف نتاج الأدباء فيما يعود عليه بالراحة والاطمئنان ويعمل مامن شأنه جلب الأهلين إليه ومحبتهم له واستلابهم لما يريد بهم المستعمر، فكنت ترى الأديب منهم يذيب دماغه ويشحذ قريحته فى نظم قصيدة أو رصف مقال فى مدح الحاكم وسياسة دولته مما أقعدهم عن مجاراة الأمم العربية وأبعدهم عن الأدب المصرى الذى يتناول كل ناحية من نواحى الحياة وحصره ضمن نطاق ضيق، فالاستعمار الإيطالى أطفأ هذا السراج الذى أخذ يضىء ماحوله وأخمد جذوة هذا الروح الفياض، وأضحى الأدب منصرفاً إلى غير مايقوم الحياة الحقيقية والاستعمار يناهضه ويسعى بكل ما أوتيه من قوة فى إبعادهم عما يرتجى من الأدب وإقصائهم عن غايته الشريفة ويقف عثرة فى سبيل الوصول إلى حقائقه المرجوة.

... كانت الحرب الثانية وبالا على طرابلس الغرب قاسى أهلوها من ويلاتها الشىء الكثير، فشردوا فى أقاليم القطر المختلفة وهجروا المدن العامرة، وصواعق الأساطيل وقذائف

الطائرات تدك البيوت القائمة وتهدم شوامخ القصور بين عويل النساء وأنين الشيوخ .

لهذا كان من الطبيعي أن تهمد الروح الأدبية تماماً في هذه البلاد ويسود القطر ظلام وجهل يبعث الأسى في النفوس ، وكانت سنو الحرب في طرابلس مرحلة فتور وجمود في الحياة الأدبية بل في الحياة العلمية بصورة أعم ، فكانت مدارس القطر مغلقة والطلاب مشردين والشباب الذي كان يتذوق شيئاً من الأدب أضحى طريداً في القفار ، وبات القلق يسيطر على السكان ويبعث فيهم الرهبة والخوف . وانجلت الحرب عن ديار أصابها الخراب والدمار ، وشعب أخره التفرق والشقاق وقد تربع الجهل على منصة البلاد فلا علم ولا أدب ولا صحف ولا نواد .

وكان في طرابلس الغرب بعض من ذوي العلم والعرفان ممن سلموا من براثن الحرب الضروس فشمروا عن ساعد الجد والعمل وبدأوا صراعاً عنيفاً بين الجهل والعلم ، يؤازرهم في عملهم هذا عدد من رجال الدين وضباط الوصاة البريطانيين فكان لنشاطهم هذا أثره في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في سنين قليلة وانتشار المدارس العلمية والأندية الثقافية المتنوعة فأقبل الشباب الطرابلسي ينهل من موارد العلم والأدب في مصر ويعود إلى بلاده مزوداً بثقافة رفيعة ساعدت على تطور الحركة العلمية والأدبية في البلاد .

وكان إقليم برقة أسبق من طرابلس في مضمار الحياة الأدبية ، ولعل قربه من مصر خصه بهذه المزية السامية الرفيعة ، فسرعان ما أنشئت فيه نوادٍ مختلفة للأدب والعلم ، منها نادي عمر المختار ، والنادي الثقافي اللذان كان عملهما مقتصراً على مدينة (بنغازي) إذ بعثا فيها الروح الأدبية شعرية كانت أم نثرية فنبغ الشعراء والكتاب الذين رأوا في صحيفة (برقة الجديدة) ميداناً فسيحاً للتعبير عن شعورهم والإفصاح عما تجيش به نفوسهم . ولعل صاحب هذه الجريدة الفتية الأستاذ « صالح البوسير » في طليعة الشباب العاملين في الحقل الأدبي فقد قرأنا له في صحيفته مقالات مختلفة في الأدب والعلم والاجتماع . وهناك الشاعر الملهم السيد « ابراهيم محمد الهوني » وله قصائد رائعة نشرتها له « برقة الجديدة » تباعاً وفي إحداها قوله مادحاً سمو الأمير إدريس السنوسي :

نظمت شعور القلب حتى غدا شعراً
وهذبت هذا الشعر حتى انثنى درا
ومن ذا الذي يستطيع مدحاً لمنصر
تسامى فكان النجم والشمس والبدرا
أمير كأن الله أعطاه حكمة أذل بها الأعداوقاد بها الدهرا
فأهلا بعهد قد أنيرت سماؤه وبعداً لهذاك الزمان الذي مرا

* * *

ومن الشعراء الشبان الذين أنجبتهم برقة السيد « محمد بشير المغربي » ومن درر قوله هذه القطعة الجميلة في شكوى الحياة والأصحاب :

على أي جنب في الحياة أميل ومالي في ظل الزمان مقيل
وأي سراب قد أضل مشاعري وظل به ماء اللجين يسيل
أسير وما هذا الطريق بموصل لأمر وقد لا يستطاب وصول
دعوت رفاقي للوقوف وإنهم قليل وما بين الرفاق دليل
فجاوبني منهم تقلب أوجه رأيت به ما في الصدور يجول
فقلت لهم سيروا وحسبي وقفة وصبر على قبح المقام جميل
وأي مقام قد أقمت فليتني رحلت ولو أن الرحيل قفول
نسير فرادى والطريق إلى المنى له شعب دون المدى ووصول
وللدهر والآمال بين صدورنا صراع ودقات القلوب طبول
ألا إن أسباب النجاح قليلة وأكثرها دون النجاح كليل

* * *

وتكاد تكون مدينة « درنة » بمناظرها الجميلة الفاتنة ملهما لكثير من الشعراء والأدباء الذين قدموا للأدب العربي فصولا أدبية قيمة وقصائد شعرية خالدة ، فهاهو ذا شاعرها الأول السيد « إبراهيم أسطه عمر » يعبر لنا عن شعور بلده نحو سمو الأمير السنوسي :

إلى الأمير فدته النفس أهديها مقالة كنت قبل اليوم أخفيها
لكنني لم أجد ظرفاً يلائمها غير الذي نحن فيه قد يواتيها
مقالة ملؤها الإخلاص أرفعها لقائد الشعب، قلب الشعب مليها
آن الأوان فما التأجيل يمنعنا لنعلن الحق إقراراً وتنبيها
وحققنا وحدة القطرين تتبعها حرية أنت معناها وراعيها

وفى « برقه » خلا هذين الشاعرين الشابين كثيرون وإنما لم يصلنا شيء من آثارهم العديدة ، منهم الشاب « أحمد فؤاد شنيب » وهو شاعر صغير السن عاش فى دمشق وعاد أخيراً إلى وطنه الأم ليبدأ نضالا أدبياجديداً فى بلاده العزيزة . ومن لطيف قوله وهو فى دمشق يصف ليلة المولد :

مالى أراك كدرّة تتلالا شمت فأكسبها البهاء جمالا
وكسوت هذا الكون أسنى شملة سطعت فألهب نورها الأجيالا

وللنثر مكانه المرموق فى برقة والمحاضرات الأسبوعية تحفل بأروع الكلمات الأدبية والإجتماعية والسياسية ونحوها يلقيها شباب توفر على درس الأدب واللغة العربية وأسرارها وتلك هى قطعة نثرية لأديب درنة « فرج بن جليل » يتحدث فيها عن وحى الهجرة :

« فى سجل الخلود ساعات فاصلة ولحظات حاسمة إذا انحرف فيها ميزان القدر يمنة أو يسرة تبعته نتائج كبيرة خالدة وآثار عظيمة باقية تجر وراءها الخير الكثير أو الشر المستطير وتبعث فى الدنيا ضياء باهراً أو انتشر ظلاماً دامساً . ومن أخطر تلك اللحظات وأعظم تلك الساعات تلك التى هاجر فيها محمد بن عبد الله ، تلك اللحظة الخالدة فى تاريخ الإسلام ذات الفضل الأكبر فى تغيير مجرى تاريخ البشرية . »

وهذه قطعة أخرى لأديب شاب من شباب طرابلس الغرب يصور لنا كيف راقب الهلال وصحبه ليلة العيد :

كنا بربوة جماعة نترقب ظهور الهلال ، وكانت أنظارنا معلقة بالسماء تجوب بها فى أجوائها باحثين منقبين فى صفحاتها نريد بصيصاً من نور يكون حجة لنا بالعيد ، وبعد لأى من زمن طال فيه اتجاهنا إلى السماء إذا بخط وضاء لاتكاد تدركه الأبصار يتجلى فى كبدها ، أشار بعضنا إلى أنه الهلال ... الخ ...

• • •

تلك هى ياقارئى نماذج صادقة شعرية ونثرية من أدب طرابلس الغرب، ولعلك أدركت أنه لم يصل بعد إلى درجات الكمال والسمو شأنه فى البلاد العربية الأخرى ، ولكن الأمل العظيم أن يثمر الأدباء اللوبيون عن ساعد الجد فيبعثوا لأدبهم ماضيه القديم وتغدو مؤلفاتهم الأدبية وكتبهم العلمية فى صدارة مكتبات البلاد العربية فإن عهد الخمول وكبت الملكات وخنق الحريات قد زال بخلاص هذه البلاد من جور الإيطاليين وظلمهم وأصبح الطريق ممهداً أمام الأدباء ليعززوا أدبهم ويجذدوا للغة العربية منزلتها فى بلادهم . وليس هذا ببعيد إن شاء الله

صلاح الدين بن موسى

يقظـــة ...

[مهداة إلى الصديق الكريم الأستاذ محمد العلائى]

شاب الظلام وفارقته الأنجم والأفق عن إصباحه يتبسّمُ
وتحدث الزهر الضحوك مبيّناً معنى السرور وإن يكن لايفهم
فاعجب لشارح قصة هو جاهلٌ أسبابها ، ولعالم لا يعلم
وقد اشرأبّ النخل يُزهى جيدُه بقلائدٍ مرجانهـــا يتضرم
مرحاً تداعبه الصّبا فترى له رقصاً عن الروح الرزين يترجم
فافرح بأعياد الطبيعة إنها متجددات ، كلّ صبح موسمُ

وإذا تجهّمت الحياةُ هنيهة فاصبر ، فوجهُ المزن فيه تجهم
كم نعمة لبست ثياب رزيّة حتى تداعبَ من بها يتبرم
فإذا التجهم بسمةٌ ، وإذا الشقا (م) ، سعادةٌ ، وإذا الرزايا أنعم
أو ما ترى الدخلاء فى أوطاننا قد أيقظوا الأفكار رغماً عنهم
كم أبرموا أمر الجلاء وقرروا فإذا غدوا نقضوا الذى قد أبرموا
فأفادنا التسويفُ عزماً لا ينى عما نروم ، وهمةً لا تحجم
هم أقوياء بالعتـــاد حقيقةً لكننا بالحقّ أقوى منهم

(الزقازيق) توفيق عوض